# الباب العشرون

# في منازل المسافرين

**المال الحلال:**

يحكى أن رجلاً حج، وكان يحمل هِمْيَان فيه دنانير وجواهر،قيمة الجميع ثلاثة آلاف دينار، وكان الهِمْيَان من ديباج أسود (الهِمْيَان كيس يعلق على المنطقة من الأمام، ويوضع الكيس أحياناً تحت الثياب، فتوضع فيه الدنانير والدراهم، ويجمع الهِمْيَان على همايين، ويقال: هِمْيَان أعجر إذا كان ممتلئاً بالدراهم.

والديباج: القماش الذي سداه ولحمته حرير، وتتخذ من الديباج الثياب والستور، كما تتخذ منه البسط والفرش، والديباج يعتبر من الثياب الفاخرة.

فلما كان في بعض الطريق جلس الحاج لقضاء حاجته،فانحل الهِمْيَان من وسطه وسقط، ولم يشعر به، ولم يعلم بذلك إلا بعد أن سار مسافة أبعدته عن ذلك المكان، وكان مصادفة مرور رجل بذلك المكان، فرأى الهِمْيَان فأخذه، وكان هذا الرجل ذا دين وأمانة وورع، فحفظه رغبة في العثور على صاحبه ابتغاء لوجه الله في حفظ الأمانة.

وقال الرجل صاحب الهِمْيَان: إن فقد الهِمْيَان لم يؤثر في قلبي، ولا ذهابه، وذلك لكثرة مالي فاحتسبته عند الله تعالى، وقلت: يخلف الله عليّ ويعوضني خيراً مما فقدت، وكان معي تجارة بأموال عظيمة، فقضيت حجي، وعدت إلى بلدي. فلما كان بعد سنين توالت عليّ محن واحدة تلو الأخرى، أوقعتني في الفقر، حتى لم يبق لي شيء، مما اضطررت للهروب على وجهي هائماً من بلد إلى بلد، تاركاً بلدي، وقد أفضيت إلى الصدقة عليّ من المحسنين، وزوجتي معي، فأويت إلى بعض القرى.

كان المسافرون في الماضي، ينزلون في إستراحات تسمى الخان والخان: فارسية: الحانوت، وأصل الكلمة آرامي وتطلق على الدكان والمخدع، ثم أطلقت على المواضع التي ينزلها المسافرون، ثم في العصر الحديث أطلق على الأماكن التي ينزلها المسافرون اسم الفندق،والنزل والاستراحة.

وللشاعر العراقي معروف الرصافي أبيات يذكر فيها الخان منها:

نزلت الخان في بلدي كأني أخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه لأني اليوم في وطني غريب

ولابن الرومي علي بن العباس قصيدة ذكر فيها الخان، كتبها إلى أبي العباس أحمد بن محمد بن ثوابة لما ندبه للخروج من أجل تصريفه مطلعها:

دع اللوم عون النوائب ولا تتجاوز فيه حد المعاتب
لقيت من البر التباريح بعدما لقيت من البحر ابيضاض الذوائب
سقيت على ري به ألف مطرة شغفت لبعضيها بحب المجادب
فملت إلى خان مرث بناؤه مميل غريق الثوب لهفان لائب
فما زلت في خوف وجوع ووحشة وفي سهر يستغرق الليل واصب
يؤرقني سقف كأني تحته من الوكف تحت المدجنات الهواضب
وكم خان سفر خان فانقض فوقهم كما انقض صقر الدجن فوق الأرانب

وقال آخر:

يا أيها السائل عن حالتي نزلت في الخان على نفسي
يغدو على الخبز خابز لا يقبل الرهن ولا ينسي
آكل من كيسي ومن كسرتي حتى لقد أوجعتني ضرسي

**صاحب الهِمْيَان:**

يقول صاحب الهِمْيَان: فنزلت في خان خراب اضطراراً لا اختياراً. فكانت زوجتي حاملاً، فأصابها المخاض (وجع الولادة)، وما كنت حينئذ أملك غير دانق ونصف دانق من فضة، وكانت ليلة ممطرة (الدانق: سدس الدرهم) فولدت، فقالت: يا هذا الساعة أموت فاْخرج وخذ لي شيئاً من الطعام أتقوى به.

فخرجت أتخبط في الظلمة والمطر، حتى جئت إلى بقال فوقفت عليه فكلمني بعد جهد، فشرحت له حالي، فرحمني وأعطاني بتلك القطعة حلبة وزيتاً، أغلاهما عنده (أي طبخ الحلبة بالزيت) وأعارني غضارة جعلته فيها فمشيت أريد أهلي بالطعام، فزلقت رجلي فانكسرت الغضارة وذهب ما فيها من الطعام.

فورد عليّ أمر عظيم، ما ورد عليّ مثله قط، وأقبلت ألطم وجهي وأبكي وأصيح بأعلى صوتي، فإذا برجل قد أخرج رأسه من شباك في داره وقال: ويلك،

ما لك تبكي؟ ما تدعنا ننام، فشرحت له قصتي، فقال الرجل: هذا البكاء والصياح كله بسبب دانق ونصف؟.

فداخلني الغمّ والحزن ما لا يعلمه إلا الله وحده، علّام الغيوب، كشّاف الكروب، فقلت: يا هذا والله ما لما ذهب عندي محل، ولكن بكائي رحمة لنفسي مما دفعت إليه، وإن زوجتي وولدي الساعة يموتان جوعاً، و والله، وإلا فعلي وعلي، وحلفت له بأيمان معلظة.

لقد حججت في سنة كذا، وأنا أملك من المال العظيم، ما ذهب مني هِمْيَان فيه دنانير وجواهر قيمتها ثلاثة آلاف دينار ما فكرت فيه،وهو ذا تراني الآن أبكي بسبب دانق ونصف دانق فضة، فأسأل الله العافية والسلامة مما أنا فيه، ولا تعيرّني فتُبتلى بمثل ما ابتليت به.

فقال الرجل: بالله عليك، ما كان صفة هِمْيَانك؟ قال: وماذا عسا ك تفعل إذا علمت صفة هِمْيَاني، وقد ذهب إلى غير رجعة، ويقنعك بعد ما خاطبتني به، وما تراه ما حالي وصورتي وقيامي في الطين والمطر، أو تريد أن تتلهى بي؟ وأي شيء ينفعني وينفعك من صفة الهميان؟ وقد ضاع مني من كذا وكذا سنة، وقفلت راجعاً إلى أهلي خائباً حزيناً.

فما خطوت إلا خطوات قليلة، فإذا به قد خرج من بيته، يعدو ورائي يصيح بي، تعالى يا رجل خذ هذا، فظننت أنه يريد أن يتصدق عليّ بشيء ينفس به كربتي، فوقفت له.

فكرّر عليّ سؤاله عن صفة هِمْيَاني، وقبض على يدي، فلم أستطع أن أتخلص منه إلا بعد أن وصفت له هِمْيَاني، فسكّن من روعي، وقال لي: ادخل المنزل فدخلت منزله.

فسألني عن زوجتي أين هي ومولودها؟ فقلت: في الخان الفلاني، فأرسل غلمانه فأتوا بها فأدخلها إلى أهله ، فأصلحوا أمرها وأطعموها وأعطوها ما احتاجت إليه، وكساني كسوة حسنة، وأدخلني الحمام وأصبحت عنده في عيشة طيبة.

فقال لي: أقم عندي أياماً في ضيافتي بأهلك، فأقمت عنده عشرة أيام، فكان يعطيني في كل يوم عشرين ديناراً وأنا متحيّر من عظيم برّه بي بعد شدّة جفائه

لي. فلما انقضى عشرة أيام، قال لي: أيّ شيء تستطيع أن تعمله؟ فقلت: إنني كنت تاجراً، لما كان عندي من المال ما يسمح بالتجارة.

### التدرج خوف المفاجأة:

فقال: أريد أن تقيم عندي وأنا أعطيك رأس مال فتتجر به وتشركني في التجارة، فقلت: أفعل إن شاء الله، فدفع إليّ مائتي دينار. وقال لي: اتجر بها ها هنا. فقلت: هذا ماش. وقد أغناني الله تعالى به، فيجب علي أن ألزمه فلزمته، فأخذت في التجارة، فما مضى إلا بضعة أشهر ربحت تجارتنا ربحاً كثيراً، فجئته فقلت له: خذ هذا نصيبك من الربح.

فقال لي: إجلس، فجلست فأخرج إليَّ هِمْيَاني بما فيه وقال لي: أتعرف هذا؟ فحين رأيته شهقت شهقة غشي علي منها.

ثم أفقت بعد ساعة، فقلت له: يا هذا أملك أنت أم نبي أم جني؟ فقال: لا هذا ولا ذاك، ولكني ممتحن بحفظ هِمْيانَك منذ كذا وكذا سنة، فلما سمعتك تلك الليلة، تقول ما قلته، وأعطيتني علامته أردت أن أعطيك الهِمْيَان فخشيت أن تنشق مرارتك من الفرح، فأعطيتك تلك الدنانير التي أوهمْتَك أنها هبة لك، وإنما أعطيتك ذلك كله من هِمْيَانك، والدنانير المائتان قرض، فخذ هِمْيَانك واجعلني في حلّ من الأمر.

فأخذته ودعوت الله له بكل خير وشكرته على موقفه النبيل، وعلى إكرامه لي ولأهلي، ورجعت إلى بلدي، وبعت الجوهر، وأضفت ثمنه إلى الدنانير، واتجرت بها، فما مضت إلا سنيات قليلة حتى صرت صاحب عشرة آلاف دينار، وصلحت حالي، فأنا بفضل الله تعالى أعيش عيشة الهناء والعزة والكرامة.

### الشعبي وعبد الملك بن مروان:

وروى أبو حاتم السجستاني في كتاب المعمرين بسنده إلى القاضي الشعبي قال: أرسل إلي عبد الملك بن مروان، وهو شاك (أي مريض)، فدخلت عليه فقلت: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين؟ فقال: أصبحت كما قال أبو قميئة الشاعر، حيث يقول:

كأني وقد جاوزت تسعين حجة ... خلعت بها عنّي عذار لجامي

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يُرمى وليس برامي

فلو أنها نبل إذاً لاتقيتها ولكنني أرمي بغير سهام
إذا ما رآني الناس قالوا ألم يكن جليداً شديد البطش غير كهام
فنيت ولم يفن من الدهر ليلة ولم يغن ما أفنيت سلك نظام
على الراحتين مرة وعلى العصا أنوء ثلاثاً بعدهن قيام

فقلت: لا يا أمير المؤمنين، ولكنك كما قال لبيد بن ربيعة العامري:

نفسي تشكي إلي الموت مجهشة وقد حملتك سبعا بعد سبعينا
فإن تزادي ثلاثاً تحدثي أمـلاً وفي الثلاث وفاء للثمانينا

فعاش والله حتى بلغ تسعين حجة فقال:

كأني وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عن منكبي ردائيا

فعاش حتى بلغ عشراً ومائة سنة فقال في ذلك:

أليس في مائة قد عاشها رجل وفي تكامل عشر بعدها عمر

فعاش والله حتى بلغ عشرين سنة ومائة فقال في ذلك:

وغنيت سبعاً بعد مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود

فعاش حتى بلغ أربعين ومائة سنة فقال في ذلك:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الخلق كيف لبيد؟

فقال عبد الملك بن مروان: والله ما بي بأس، أقعد حدثني ما بينك وبين الليل فقعدت، فحدثته حتى أمسيت، ثم فارقته فمات في ليلته.

## إياك والظلم:

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٢].

إن الظلم مرتعه وخيم،إذ إنه يجر في أعقابه الذل والخذلان، والعار والشنار، وبئس الزاد إلى المعاد ظلم العباد للعباد، ووالله ما عزل ذو باطل، ولو طلع القمر

من بين عينيه، ولا ذل ذو حق ولو اتفق العالم عليه، وللباطل جولة،ثم يضمحل، وللحق دولة لا تنخفض ولا تذل، وجاء في الحديث النبوي الشريف، فعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**» أخرجه البخاري.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له :(إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك)، وقال أحد الأمراء: (غني لأستحيي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصرا إلا الله)، نعم الناصر هو الله.

وعن أبي معبد مولى ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ، بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن فقال:«**اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**» أخرجه البخاري.

وقال الشاعر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقد جاء في المثل قولهم عن الظالم:(فلان أظلم من حية)، لأن الحية لا تحفر لنفسها بيتاً، وإنما تقصد كل بيت من بيوت الهوام فيهرب أهله، ويخلونه لها خوفاً منها، وقال الشاعر:

فلا تعجل على أحد بظلم فإن الظلم مرتعه وخيم
ولا تفحش وإن مليت غيظاً على أحد فإن الفحش لؤم
ولا تقطع أخاك عند ذنب فإن الذنب يغفره الكريم
ولكن داري عوراه برفق كما قد يرقع الخلق القديم
ولا تجزع لرب الدهر واصبر فإن الصبر في العقبى سليم
فما جزع بمغن عنك شيئاً ولا ما فات ترجعه الهموم

وقال أبو العيناء، كان لي خصوم ظلمة، فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود، وقلت: قد تضافروا علي، وصاروا يداً واحدة، فقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾

[سورة الفتح: ١٠]. فقلت له: إن لهم مكراً. فقال: ﴿ولا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [سورة فاطر: ٤٣]. قلت: هم فئة كثيرة. فقال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩].

## رأي ابن عباس في الظلم:

وذكر الظلم يوماً في مجلس عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، فقال كعب: إني لأجد في كتاب الله المنزل: (أن الظلم يخرب الديار) فقال ابن عباس تصديقه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النمل: ٥٢].

## موقف كسرى من معلمه:

ويروى أن كسرى أنوشروان، كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق أقرانه في العلوم، فضربه المعلم يوماً، على غير ذنب فعله فأوجعه، فحقد أنو شروان على المعلم، فلما ولي الحكم أنو شروان استدعى المعلم فسأله: ما حملك على ضربي يوم كذا وكذا ظلماً على غير ذنب فعلته؟. فقال له المعلم: لما رأيتك ترغب في العلم رجوت لك الملك بعد أبيك، فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم. فقال أنو شر وان :أحسنت أحسنت.

## أظلم من ذئب:

وقالوا في المثل: أظلم من ذئب، وقد كثرت أمثال العرب وأشعار الشعراء بظلم الذئب، ومن ذلك قولهم: من استرعى الذئب ظلم ومستودع الذئب أظلم، وكافأه مكافأة الذئب.

ومما جاء في أشعارهم، فقد حكى ابن الأعرابي: أن أعرابيًّا ربّى بالبادية ذئباً، فلما شب الذئب افترس شاة له من أغنامه، فقال الأعرابي:

فرست شويهتي وفجعت طفلاً ونسواناً وأنت لهم ربيب
نشأت مع السخال وأنت طفل فما أدراك أن أباك ذئب
إذا كان الطباع طباع سوء فليس بمصلح طبعاً أديب

وقال آخر:

وأنت كجرو الذئب ليس بآلف أبى الذئب إلا أن يخون ويظلما

وقال آخر:

وأنت كذئب السوء إذا قال مرة لعمروسة والذئب غرثان مرمل

(العمروسة أم الكبش، وتسمى النعجة)

أأنت الذي من غير جرم سبيتني؟ فقالت: متى ذا قال ذا عام أول؟

فقالت: وليد العام بل رمت ظلمنا فدونك كلني لا هنالك مأكل

**وقال طرفة بن العبد:**

فظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهنّد

وقال بعضهم: ما هبت شيئاً قط هيبتي من رجل ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله،فيقول: حسبك الله،الله بيني وبينك.

وقال آخر: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله، وفي الأثر: (يقول الله اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيري).